وَاجِبُ العُلَمَاء

تُجَاه الأمّةِ الإسْلاميّة

كتبه

الشيخ د. مُحمّد بن حمد الحُمُود النّجدي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسّلام على المَبْعوثِ رحمةً للعالمين، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

فقد خرَّج الإسْلام عُلَماء عُظماء في شتّى التّخصّصات الشّرعيّة، منذ عهدِ الرسَالة، وعلى امتداد الزّمان والمَكان، وما يزالُ هذا الدّين المُبَارك يُخرّج العُلماء إلى يوم القيامة، فهم ورثة الأنْبياء كما أخبرَ بذلك الصّادق المَصدوق، تَحقيقاً وتصديقاً لعالمية الرسالة التي يحملونها، وينوبون في تبليغها عن نبيّ الرّحمة المُهداة للعالمين.

والناس بحاجةٍ للعِلم والعُلماء أكثر مِنْ حاجتهم للطّعام والشّراب، وسائر مُقومات الحَياة، فإنّ تميّز الإنْسان، وتكريم الله له على سَائر المَخْلوقات؛ إنّما كان بالعقلِ والإدْراك، الذي به يُميّز الصّالح منَ الطّالح، والخيرَ مِنَ الشر، وهو سببُ التكليف، وبه يتفاوت الناس.

والعُلماءُ هُم مِنْ أولي الأمْر الذين أمَرَ الله تعالى بطاعتِهم، وأوجبَ على الناس اتّباعهم وتَوقيرهم، لأنّهم صِمام الأمان للأمّة، يَعصمُونها مِنَ الزّيغ والضّلال، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) النساء: 59.

فتجبُ طاعتُهم بعد طاعةِ الله، وطاعةِ رسوله صلى الله عليه وسلم، والأصْل الجامع في ذلك هو: قولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إنّما الطّاعة في المَعرُوف". متفق عليه.

ويعنى بالمَعروف هنا: ما ليسَ بمُنكرٍ ولا مَعصية.

وهمْ عِصمةٌ للأمّة مِنَ الضّلال، مِصْداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ، ولَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ،

حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً؛ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤوسا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا". متفق عليه.

ولا شكّ أنّ أكثرَ ما أصابَ الأمّة منْ انْحرافٍ عقدي وفكري وسُلوكي، وهوانٍ وضَعف، إنّما هو نِتاجُ إضْعاف وظيفة العُلماء، وإبْعاد الدُّعاة الصّالحين، والقُدوات في المجتمعات الإسْلامية، عن التأثير والتعليم، مع كيدِ أعداء الإسْلام ومكْرهم بالليلِ والنهار، لإفْساد المُسلمين، والدّعوة إلى الإلْحاد، ونشر الرّذيلة، ومُحَاربة الفَضيلة، ودَعم الانْحلال، وإضْعاف التّمسّك بالإسْلام عُمُوماً.

فأولاً: مَنْ هُم عُلماء الأمّة، ووَرثة الأنْبياء؟

أخبرَ النبيّ صلى الله عليه وسلم في الحديث بصفاتهم فقال: "منْ سَلك طريقاً يطلبُ فيه علماً، سَلك اللهُ به طريقًا من طُرقِ الجنةِ، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجْنحتَها رضاً لطالبِ العِلمِ، وإنَّ العالِمَ ليستغفرُ له مَنْ في السّماواتِ ومَن في الأرضِ، والحيتانُ في جوفِ الماءِ، وإنَّ فضلَ العالمِ على العابدِ كفضلِ القَمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العُلماءَ ورثةُ الأنْبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثُوا ديناراً ولا درهماً، ورَّثُوا العِلمَ فمَنْ أخذَه أخذ بحظٍّ وافرٍ".

أخرجه أبو داود (3641) واللفظ له، والترمذي (2682)، وابن ماجة (223)، وأحمد (21715).

ولا شك أنّ العالَم الوارث للنّبوّة؛ ليس الذي كثُر حِفظه للآثار والنّقول فقط، أو مَنْ اشْتغل بمُجرّد التأليفِ والتّصنيف، دون العملِ بما حَفظ، ولا الدّعوة إليه، والعمل على تبليغه، ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً.

بل العالم الوارث للّنّبوة، هو الذي ينوبُ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في بيان شَرع الله تعالى لخَلقه جميعاً، كما ينوبُ عنه صلى الله عليه سلم في الدّفاع عن العقيدة والتّوحيد، والسّنّة النّبوية والاتّباع، وإصْلاح ما أفسَده الناس، والدّعوة إلى مَكارمِ الأخْلاق التي هي جَوهر الرّسالة المُحمّديّة، والاجْتهاد في توجيه الناس ودعوتهم إلى الخَير والصلاح، والأمر بالمَعروف،

والنّهي عن المُنْكر، والدفاع عن حُرمات الإسْلام ومُقدّساته، ونُصْرة المُسلمين وإعانتهم على مَنْ عاداهم، والتَّحذير مِنْ تولّي الكافرين وأعوانهم، ومنْ مُناصرتهم بأي نوعٍ منْ أنْواع النّصرة، بما يتطلبه ذلك منْ صبرٍ ومُصابرة ومُرابطة.

فهذا هو المعنى الحقيقي للوراثة المَقْصُودة منْ حديث الصّادق المعْصُوم صلى الله عليه وسلم، فالإرثُ النّبوي هو رسالةٌ إلهية للإنسانية، ودعوة هادية لمكارم الأخلاق، وتشريعات وأحْكام، وهو أمانةٌ ومسؤولية على عاتق العُلماء، للدعوة إلى كلّ ذلك، وبذل الجهود لتحقيق مقاصد الرسّالة المحمديّة في مختلف مجالاتها.

ولذلك كان العلماء- كما وَصَفهم الله تعالى- أكثر الناس خشية لله تعالى وحده، ولا يخشون غيره، ولا يَخافون في قولهم لومةَ لائم، قال تعالى: (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا) الأحزاب: 39.

وقال سبحانه: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فاطر: 28.

- والعالم الذي تمثل تلك الصّفات، هو الذي تناقلت الأمة مدحه وتقدير مكانته بين المؤمنين، وفي هذا المقام نذكر كلاماً جامعاً ماتعاً، في بيان فضل العلماء،

قال فيه محمد بن الحُسين الآجُرّي في مقدمة كتابه "أخْلاق العلماء": "إنّ الله عزّ وجل، وتقدّست أسماؤه، اختصّ مِنْ خَلقه مَنْ أحبّ، فهداهم للإيمان، ثمّ اختصّ منْ سائر المؤمنين مَنْ أحبَ، فتفضّل عليهم، فعلْمهم الكتاب والحِكْمة، وفقّههم في الدّين، وعلّمهم التأويل، وفضّلهم على سائر المُؤمنين، وذلك في كلّ زمانٍ وأوان، رَفعهم بالعلم، وزيّنهم بالحلم، بهم يُعْرف الحَلال منَ الحَرام، والحقّ منَ البَاطل، والضّار مِنَ النافع، والحَسَن من القبيح.

فَضلُهم عَظيمٌ، وخَطَرهم جَزيل، وَرَثة الأنبياء، وقرّة عين الأوْلياء، الحِيتان في البحار لهم تَسْتغفر، والملائكة بأجْنِحتها لهم تَخْضع، والعُلماء في القيامة

بعد الأنْبياء تَشفع، مجالسهم تُفيد الحِكْمة، وبأعْمالهم ينزجِر أهلُ الغفلة، هم أفْضلُ من العباد، وأعلى درجة من الزُّهاد، حياتهم غَنيمة، وموتهم مُصيبة، يذكرون الغافل، ويعلمون الجاهل، لا يتوقّع لهم بائقة، ولا يخافُ منْهم غائلة، بحُسْن تأديبهم يتنازع المُطيعون، وبجميل موعظتهم يرجع المُقصّرون، جميع الخَلْق إلى عِلمهم مُحْتاج، والصّحيح على مَنْ خالف بقولهم محجاج.

الطاعةُ لهم مِنْ جميع الخَلقِ واجبة، والمَعصية لهم مُحرّمة، مَنْ أطاعهم رشد، ومنْ عَصَاهم عند، ما ورد على إمام المُسلمين مِنْ أمرٍ اشْتبه عليه، حتى وَقف فيه؛ فبَقولِ العُلماء يَعمل، وعن رأيهم يَصدر، وما ورد على أمَراء المُسلمين من حُكمٍ لا عِلمَ لهم به، فبَقولهم يَعملون، وعنْ رأيهم يَصْدُرون، وما أشْكل على قضاة المسلمين مِنْ حُكم، فبقولِ العُلماء يَحكمون، وعليه يعوّلون، فهم سِراج العِباد، ومنار البلاد، وقِوام الأمة، وينابيع الحِكمة، هم غيظُ الشّيطان، بهم تحيا قلوبُ أهلِ الحق، وتموت قلوبُ أهلِ الزّيغ، مَثَلُهم في الأرضِ كمَثَل النّجوم في السّماء، يهتدى بها في ظُلُمات البَرّ والبحر، إذا انْطَمستْ النُّجوم تحَيّروا، وإذا أسْفر عنْها الظّلام أبْصَرُوا". "أخلاق العلماء".

ثانياً: واجبُ المُسْلمين تُجاه عُلَمائهم:

لمّا كان العُلماءُ بذلك القَدْر، وبتلك المَنْزلة والدّرَجة، فإنّه يتعيّن على الناسِ جميعاً على اختلافِ مَراتبهم؛ أنْ يقدّروهم حقّ قَدْرهم، ويحبّوهم ويعظموهم، كما يجبُ عليهم أنْ يَحفظوا حرماتهم، وأنْ يطيعوهم فيما يأمرون، ما دامُوا على الصّفات والأخْلاق التي اسْتحقّوا بها تلك المَنْزلة والدّرجة.

قال الإمامُ ابنُ تيميّة في بيان قَدْر العُلماء، ووجُوب طاعتهم: "فيَجبُ على المُسْلمين بعد مُوالاةِ الله ورسُوله؛ مُوالاة المُؤمنين، كما نطقَ به القرآن؛ خُصُوصاً العُلماء الذين همْ ورثة الأنْبياء، الذين جَعلهم الله بمَنزلة النُّجُوم يُهْتدى بهم في ظُلمات البرّ والبَحر، وقد أجْمع المُسْلمون على هدايتهم

ودرايتهم، إذْ كلّ أمّة قبل مَبْعث محمّد صلى الله عليه وسلم فعُلماؤها شِرارها؛ إلا المسلمين؛ فإنّ عُلماءهم خيارهم؛ فإنّهم خُلفاء الرسّول في أمّته، والمُحيُون لمَا ماتَ منْ سُنّته، بهِم قامَ الكتاب وبه قاموا، وبِهم نَطَق الكتاب، وبه نَطقوا". "مجموع الفتاوى" (232/20).

- **وقال الامامُ ابنُ القيّم رحمه الله: "**فُقَهاء الإسْلام، ومَنْ دَارَت الفُتيا على أقوالِهم بينَ الأنَام، الذين خُصّوا باسْتنباط الأحْكام، وعُنُوا بضَبط قواعد الحَلال والحرام؛ فهم في الأرْض بمنزلة النّجوم في السّماء، بهم يهتدي الحَيران في الظّلماء، وحاجة الناس إليهم أعْظم مِنْ حاجتهم إلى الطّعام والشّراب، وطاعتهم أفْرضُ عليهم مِنْ طَاعة الأمّهات والآباء بنصّ الكتاب، قال الله تعالى: (يا أيها الذينَ آمنُوا أطِيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسُول وأولي الأمْر منْكم فإنْ تَنازعتمْ في شيءٍ فرُدّوه إلى الله والرسُول إنْ كنتُم تُؤمنُون باللهِ واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحْسنُ تأويلا) النساء: 59". "أعلام الموقعين" (8/1).

ثالثا: واجبُ العلماء تُجاه الأمّة وقضاياها:

أمّا واجبُ العلماء تُجاه الأمّة وقضاياها، فبالرجُوع إلى الآثار والنّصُوص السّابقة؛ يَتَبيّن أنّ العُلماء حَازوا الشّرف، واسْتحقُّوا الإجْلالَ والتعظيم، ووجَبت لهم الطّاعة والاتّباع، بما حَملوه على عاتقهم منْ مسْؤُولياتٍ جِسامٍ، ومنْ أعْظم هذه المَسؤوليات وأهمّها، باخْتصار ما يلي:

أولاً - حِفظُ دينِ الأمّة، وعَقيدتها وتَوحِيدها:

وحِفْظُ الدّينِ والتّوحيدِ والاعْتقاد، وأصُول الإيمان، هو أهمّ وأعْظمُ مقْصدٍ جاءت الشّريعة لتحقيقه، لأنّه يُحقّق الغاية التي مِنْ أجْلها خَلقَ اللهُ تعالى الإنْسان، وبَعثَ لأجْله الأنْبياء والرّسُل، وأنْزلَ الكتُب، وفصّل الشّرائع والأحْكام، والأوامرَ والنّواهي.

قال تعالى: (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ) الأنبياء: 25.

وقال سبحانه: (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) غافر: 14.
وقال سبحانه: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) محمد: 19.

وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) النساء: 136.

وقال سبحانه: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) البينة: 5.

والعُلماء الربّانيّون؛ همْ ورثة الرسُل في ذلك أولاً.

- قال الشيخ ابنُ باز رحمه الله: **"**فواجبٌ على أهلِ العلم خُلفاء الرُّسل؛ أنْ يُبيّنُوا للناس هذا الأمْرَ العظيم، وأنْ يكونَ أعظمَ المَطْلوب، وأنْ تكونَ العنايةُ به أعظمَ عناية؛ لأنّه مَتَى أسلم صارَ ما بعده تابعاً له، ومتَى لمْ يُوجد التوحيد؛ لمْ يَنفع المُكلّف ما حَصَل مِنْ أعْمالٍ وأقوال، قال الله تعالى: (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأنعام: 88.

وقال تعالى: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) الفرقان: 23.

وقال سبحانه: (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) الزمر:65. في آياتٍ كثيرات.

فالواجب على الطّلبة في هذه الجَامعة، وعلى جميعِ الطّلاب في جميع الجامعات الإسْلامية: أنْ يعتنوا بهذا الأصْل، وأنْ يُحْكِموه غاية الإحكام، حتى يكونُوا دعاةً للهدى، ومبشّرين بالحقّ، وحتى يكونوا مُبصّرين للناس بحقيقة دينهم، الذي بعثَ الله به نبيّه مُحمّداً عليه الصّلاة والسلام، وبعث به الرُّسل جميعاً.

وهذه الكلمة التي أقُولُها لكم الآن؛ تتعلق بأنواعِ التوحيد، وأنواعِ الشّرك.

والتَّوحيد: مَصْدر وحّد يُوحّد توحيداً، يعني: وحّد الله، أي: اعْتَقده واحداً لا شريكَ له في رُبُوبيّته، ولا في أسْمائه وصفاته، ولا في أُلُوهيّته وعبادته، سبحانه وتعالى.

فهو واحدٌ جلّ وعلا وإنْ لمْ يُوحّده الناسُ، وإنّما سُمّي إفْرادُ الله بالعبادة توحيداً؛ لأنّ العبدَ باعتقاده ذلك؛ قد وحّد الله عزّ وجل، واعْتقدَه واحداً، فعامله على ضَوء ذلك: بإخْلاصِ العبادة له سُبحانه، ودعوته وحْده، والإيمان بأنّه مُدبّر الأمُور، وخالق الخَلْق، وأنّه صاحبُ الأسْماء الحُسْنى، والصّفات الكاملة، وأنّه يستحق العبادة دون كل ما سواه.

وعند التّفْصيل تكونُ أنْواع التّوحيد ثلاثة:

توحيدُ الرُّبوبيّة، وتوحيدُ الألوهيّة، وتَوحيدُ الأسْماء والصِّفات.

فتوحيد الربوبية أقرّ به المُشْركون ولمْ يُنْكروه، لكنّهم لمْ يَدخُلوا به في الإسْلام؛ لأنّهم لمْ يَخصّوا الله بالعِبادة، ولمْ يُقرّوا بتوحيد الإلهيّة، بل أقرُّوا بأنَّ ربَّهم هو الخَالقُ الرّازق، وأنَّ الله هو ربّهم، ولكنّهم لمْ يُوحّدُوه بالعِبادة، فقاتلهم النّبيّ صلى الله عليه وسلم حتى يُخْلصُوا العِبادة لله وحْده... "مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز" (1/ 28).

ثانياً - الردُّ على أهْلِ البدع والمُبْطلين، وأهلِ الآراءِ الزّائغة، والأفكارِ المُنْحَرفة:

فإنّ الرّدّ على أهلِ الباطل؛ منَ الجِهاد في سَبيل الله سبحانه، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) التوبة :73.

والجهادُ يكونُ بالسّيف والسّنان، ويكون بالحُجّة والبَيان، وهذا الثاني أعْظمُ وأكْبَر، كما قال تعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم، والخِطاب للأمّة جَميعاً: (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) الفرقان: 52.

أي: جَاهِدهم بالقُرآن، كما ذَكره ابنُ كثير رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنه.

- وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسُول الله صلى الله عليه وسلم: **"**جَاهِدُوا المُشْركين بأمْوالِكم وأنفُسِكم وألْسَنتكم**"**. رواه أبو داود (2504) والنسائي (7/6).

- وقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "يَحْملُ هذا العِلْم مِنْ كلّ خَلَفٍ عُدُوله، يَنفونَ عنه تَحْريفَ الغالين، وانْتحالَ المُبْطلين، وتأويلَ الجَاهلين**"**. رواه الطحاوي في مشكل الآثار وأبو نعيم في الصحابة.

- قال شيخ الإسْلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى: "والرّادُّ على أهلِ البِدع؛ مُجاهد، حتى كان يحيى بن يحيى رحمه الله يقول: الذَّبُّ عن السُّنّة؛ أفْضلُ مِنَ الجِهاد**"**. "الفتاوى" (13/4).

وذَكَرَ الشّيخ رحمه الله تعالى أهلَ البِدع المُخالفين للكتابِ والسُّنّة، في أقوالهم أو عباداتهم، ثمّ قال رحمه الله: **"**فإنَّ بيانَ حَالهم، وتَحْذير الأمّة منْهم، واجبٌ باتفاقِ المُسْلمين، حتّى قيلَ لأحْمد بن حنبل رحمه الله: الرّجلُ يَصُومُ ويُصلّي ويَعْتكف، أحبُّ إليك، أو يتكلّم في أهل البِدع؟ فقال: **"**إذا قامَ وصلى واعْتكف؛ فإنّما هو لنفْسِهِ؛ وإذا تكلّم في أهلِ البدع، فإنّما هو للمُسْلمين هذا أفضل.

فبيّن أنّ نفعَ هذا عامٌ للمُسْلمين في دِينهم، مِنْ جنْسِ الجِهاد في سَبيل الله**"**. "الفتاوى" (231/28).

- وبيّن شيخ الإسْلام رحمه الله تعالى بعدها؛ أنّ دفعَ عُدْوان هؤلاء؛ أعْظم مِنْ دفعِ عُدْوان العدو مِنْ أهلِ الحَرب، لأنّ أهل الحَرب إنّما يُفسدُون القلوبَ وما فيها مِنَ الدِّين تَبَعاً، وأمّا أولئكَ فهُم يُفْسُدون القُلوبَ ابتداءً.. ثمّ ذكر الأدلّة عليه.. "الفتاوى" (232/28).

- وروي عن الإمام الشّافعي رحمه الله أنّه قال: "لولا أهلُ المَحَابر؛ لصَعَدَ الزّنَادقة على المَنَابر".

فضلالُ الأمَم، وذِهابُ دينها، يكونُ بموتِ عُلَمائها، وكذا بسُكوتهم عن الباطل، أو بضلالهم الذي به يَعلُو البَاطل ويشيع؟**!**

وقد وبّخَ اللهُ عزّ وجل عُلَماء اليَهود، على تَرْكهم فَضيلة الأمْر بالمَعرُوف، والنّهيّ عن المُنْكر، وتقاعُسهم عنه، فقال تعالى: (لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ) المائدة: 63.

وقال تعالى عنهم أيضاً: (كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ) المائدة: 79.

- وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: "والّذي نَفسِي بيدِهِ؛ لتأمُرُنَّ بالمَعْروفِ، ولتَنهوُنَّ عنِ المُنكرِ، أو ليوشِكَنَّ اللَّهُ أنْ يَبْعثَ عليكُم عقابًا منهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ". رواه الترمذي.

- وعن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: قال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ رَأى منْكمْ مُنْكراً فليُغيّره بيدِه، فإنْ لمْ يَسْتطع فبِلسَانه، فإنْ لمْ يَسْتطعْ فبقَلبِه، وذلك أضْعفُ الإيمان". رواه مسلم (49).

- وقال بعضُهم لأحْمد بن حنبل رحمه الله تعالى: إنّه يَثْقلُ عليَّ أنْ أقولَ: فلانٌ كذا، وفلانٌ كذا؟ فقال: إذا سَكتَّ أنتَ، وسَكتُّ أنا، فمتَى يَعْرفُ الجاهلُ الصّحيحَ مِنَ السّقيم". "الفتاوى" (231/28).

ثالثاً - تبليغُ شَرْع الله لِعباده، وبيانُ الحَلالِ والحَرام والأحْكام، والاجْتهاد في إفتاءِ الناس فيما يَعْرض لهم مِنَ النّوازل والقَضايا، ودَعوة إلى الخَير

والمَعروف، بكلّ أنواعه وفي مُختلف المُجالات، وعلى جَميع المُستويات، وفي مُخْتلف الأزْمنة والأمْكنة.

يأمرُونهم بكتابِ الله، وسُنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم، كما أمر تعالى: (اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ) الأعراف: 3.

والسُّكوتُ عن ذلك؛ سببٌ لتركِ الواجبات، وفعل المُحرّمات، قال تعالى: (لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ) المائدة: 63.

فالواجبُ أنْ يَسْتحضر علماؤنا الأفاضل مسؤوليتهم التي كلّفهم الله تعالى إيّاها في كتابه، وعلى لسان رسُوله صلى الله عليه وسلم، والتي سار عليها علماء المُسلمين في القُرون المُفضّلة، ودَعوا مَنْ بعدهم إلى احْتذائها، ليستقيم حال الأمّة على نهج الإسْلام العظيم.

فمنْ أهمّ وظائف العُلماء التي ناطها اللهُ تعالى بهم: بيانُ الحقّ وإظهاره للناس، اقتداء برسُول الله صلى الله عليه وسلم، والرُّسل مِنْ قبله.

قال الله تعالى: (يا أيها الرسُول بلّغْ ما أُنْزلَ إليك منْ ربّك وإنْ لمْ تفعلْ فما بلّغتَ رسَالته واللهُ يَعْصِمك مِنَ الناسِ إنّ الله لا يَهدي القوم الكافرين) المائدة: 67.

وقال تعالى: (قلْ هَذه سَبيلي أدْعو إلى الله على بصيرة أنّا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين) يوسف: 108.

وتوعّد سبحانه وتعالى مِنْ كتم الحقّ عن الخَلق أشدّ الوعيد، فقال: (إنّ الذين يكتُمونَ ما أنْزلنا مِنَ البيّناتِ والهُدى مِنْ بعدِ ما بيّناه للناسِ في الكتاب أولئك يَلْعنهم اللهُ ويلعنهم اللاعنون) البقرة: 159.

ولمّا كان علماءُ أهلُ الكتاب يكتُمون الحقّ، ليأخذُوا به عَرَضاً مِنَ الدنيا: مالا أو جاهاً أو منْصباً، أبرز الله تعالى مع وعيده الشديد لهم ذلك الداعي إلى كتمان الحق، فقال تعالى: (إنّ الذينَ يكتُمُون ما أنزلَ الله منَ الكتابِ ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بُطُونِهم إلا النّار ولا يُكلّمُهم اللهُ يومَ القيامة ولا يُزَكّيهم ولهُمْ عَذابٌ أليم) البقرة: 174.

وكلُّ مَنْ كتم الحقّ مِنَ العُلماء؛ في أيّ عَصرٍ مِنَ العُصُور، استحقّ هذا الوعيد الذي تَرْتَعد له فرائصُ العُقَلاء.

بل إنّ علماء المسلمين أولى بهذا الوعيد الشّديد؛ ممّن سَبقهم منْ عُلماء الأمم الماضية، لأنّ الحقّ في هذا الدّين مَحْفوظ في مَصْدريه: القرآن الذي حَفظه الله، فلمْ يتمكّن أحدٌ منْ تحريفه، بخلافِ الكتُب السّابقة التي لمْ تعدْ صالحةً للرّجوع إليها، لأنّها قد حُرّفت، وما بقي منْها لمْ يُحرّف؛ كتمه علمَاؤها؟

وهذا يُحَمِّل علماءنا الأفاضل مَسْؤولية عظيمة، لأنّهم وَحْدهم عندهم مصدر الحقّ الإلهي الصحيح، وهو كتابُ الله المَحفُوظ الذي (لا يأتيه الباطلُ مِنْ بين يدَيه ولا مِنْ خَلْفه تنزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميد) فصلت: 42.

وقال سبحانه عنه: (إنا نحنُ نزّلنا الذّكرَ وإنّا له لحافظون) الحجر: 9.

وكما تولّى الله تعالى حِفْظ كتابه بنفسِه، فقد هيّأ عبادَه الصّالحين مِن المُحدّثين، لِحفظ سُنّة نبيه صلى الله عليه وسلم وحديثه، فبيّنوا صَحيحها وحَسنها؛ منْ ضَعيفها وموضُوعها.

كما هيّأهم لاسْتنباط المعاني والأحْكام مِنْ كتابِ الله، وسنّة رسُوله صلى الله عليه وسلم، والردّ على كلّ افْتراء وتحريف لمعانيهما.

والإنْسَانُ- مهما كان فَضْله- في حاجةٍ إلى التّذكير، لأنّه مُعَرضٌ للغفلة والنّسيان، وللتّنشيط والتّحفيز، لأنّه مُعرّض للكسَل، وبحاجة للنّصيحة، لأنّه معرضٌ لتثبيط الشّيطان ووسَاوسه.

رابعاً - الأمْر بالمَعرُوف والنّهي عن المُنكر:

أمّة الإسلام هي أمّةُ الأمر بالمَعْروف، والنّهي عن المُنْكر، وبذلك مَدَحها الله تعالى بقوله سبحانه: (كنتمْ خيرَ أمّةٍ أخْرجتْ للناس تأمُرونَ بالمَعروف وتَنْهونَ عن المُنكر) آل عمران: 110.

وإلى ذلك دَعا سُبحانه عُلماء الأمّة خاصّة، فقال عزّ من قائل: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) آل عمران: 104.

وقد بيّن النّبيّ صلى الله عليه وسلم أنّ هذا الواجب درجات، بحسب قُدرة ومكانة وأهلية كلّ فردٍ منَ الأمّة؛ في الأمر بالمَعروف، والنّهيّ على المُنكر، فقال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ رَأى منْكم منكرًاً فليغيّره بيَدِه، فإنْ لمْ يَسْتطع فبلسَانه، فإنْ لمْ يَسْتطعْ فبِقَلْبه، وذلك أضْعفُ الإيمان". رواه مسلم.

وحذّر صلى الله عليه وسلم الجَميعَ منْ تركَ واجبَ الأمْر بالمَعروف، والنّهي عن المنكر، وعلى رأسِهم أهل العلم، فقال عليه الصلاة والسلام: "والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بالْمَعْرُوفِ، ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّه أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلا يُسْتَجابُ لَكُمْ". رواه أحمد وغيره.

ومن منْهج عُلماء أهل السُّنة والجَماعة: مُناصَحة ولاة الأمُور، لأنّ هذا أمرٌ قد وَردَ به الشّرع الحَكيم، كما روى مالك في الموطأ والإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسُول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ الله يَرضَى لكم ثلاثاً، ويَسْخط لكم ثلاثا، يَرْضَى لكم أنْ تَعْبُدوه ولا تُشْرِكوا به شيئاً، وأنْ تَعْتصِمُوا بحَبلِ الله جَميعاً، وأنْ تُناصحوا مَنْ ولّاه اللهُ أمْرَكم...".

وثبتَ في صحيح مسلم: عن تَميم الداري رضي الله عنه: أنّ النّبي صلى الله عليه وسلم قال: "الدّينُ النّصَيحة". قلنا: لمَن؟ قال: "للهِ ولكتابِه ولرسُوله، ولأئمة المُسْلمين، وعامّتِهم".

وتكونَ هذه المُناصَحة بالرّفقِ واللّين، والحِكْمة وبالكلام الحَسن، فروى ابن أبي عاصم في "السّنة": عن عياض بن غنم رضي الله عنه: أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ أرادَ أنْ يَنْصحَ لذي سُلطان؛ فلا يُبده عَلانية، ولكنْ يَأخذ بيدِه فيَخْلُوا به، فإنْ قَبِلَ منه فذاك، وإلا كانَ قد أدّى الذي عليه".

وقال النّووي في شرْحه على صَحيح مسلم: "وأمّا النّصِيحة لأئمة المُسْلمين: فمعاونتهم على الحقّ، وطَاعتهم فيه، وأمْرهم به، وتَنْبيهم وتذكيرهم برفقٍ ولُطْف، وإعْلامهم بما غَفَلوا عنه، ولمْ يَبْلغهم مِنْ حُقُوق المُسلمين، وتَرك الخُروج عليهم، وتألف قُلوب الناس لطاعتهم.

قال الخَطابي رحمه الله: ومِنَ النّصيحة لهم: الصّلاة خَلفهم، والجهاد معهم، وأداء الصّدقات إليهم، وترك الخُروج بالسّيف عليهم، إذا ظَهر منْهم حَيفٌ، أو سُوء عشرة، وأنْ لا يَغرّوا بالثّناء الكاذب عليهم، وأنْ يُدْعى لهم بالصّلاح.... انتهى.

فالأمرُ بالمَعرُوف والنّهي عن المُنْكر؛ بناء على النُّصوصِ السّابقة وغيرها؛ واجبٌ كفائي على الأمّة في عُمُومها، وعلى علمائها خاصّة، فهم الأقدر على الأمر والنّهي بما علّمهم الله تعالى مِنَ العلم، وبما لهم منْ مَكانة عند الناس، فإنْ وجِد منَ العلماء مَنْ يقُوم به؛ سَقطَ الإثمُ على الجَميع، وإلا أثمَ الجميع بترك هذا الواجب، الذي به صلاحُ الأمّة، وصلاح أفرادها.

خامساً - مُحاربة كلّ المَبادئ والعادات والتقاليد الدّخيلة على المُجتمع المُسلم، والتي تنشر الشّرك والكفر والإلحاد، وتدعو إلى الرّذيلة في صُفوف المُسْلمين، ويُراد منْها تبديل شَخصيّة المُسْلم المُوحد، وتشبيهها بالكفّار والمُشْركين

وغيرهم، وتقليد الآخرين، وتتبّع خُطواتهم شِبراً بشبرٍ، وذِراعاً بذراع، وهو ما حذّر منْه النّبي صلى الله عليه وسلم أمّته، كما قال صلى الله عليه وسلم: "لتتّبعنّ سَنَن مَنْ قبلكم، شِبْراً بشِبْر، وذِرَاعاً بذِراع، حتّى لو سَلَكوا جُحْر ضَبّ؛ لسَلَكْتُموه". رواه البخاري.

سادسا - واجبُ التّربية الإيمانية:

على العُلُماء أنْ يقومُوا بواجِبهم في تَربية أبناء وبنات الأمّة، التّربية الإسْلامية المُتوازنة، وتَوعيتهم بواجباتهم الفَردية والجَماعية، وهو ما يَنْعكس إيجاباً على قيام الأمّة بواجبها تجاه أمّتهم، وتجاه عُلمائها، تقديراً وتَعظيماً، وطاعة واتباعاً.

وكذا تعليمهم الحِكمة في مُعاملة الناس والمُجتمع، فالدَّعوة إلى الله تقوم على الحِكمة والمَوعظة الحَسنة، وتظهر الحِكمة في معرفة المُناسب لكلّ مُجْتمع منْ أساليب الدّعوة، ممّا يتلاءم مع عاداتِه وأعْرافه، وصِفاته وأحْواله، وكذلك المناسب منَ الدّعوة لكلّ فئةٍ مِنَ الناس، والدّاعية الحَكيم لا يقولُ كلّ ما يَعرف لكلّ مَنْ يَعرف، بل هو يتعامل مع العُقُول حَسْب مَقْدرتها، لا حسبَ مقدرته هو، ولا يُحمّلها فوقَ طاقتها.

وقد دَعا النّبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس فقال: "اللهمّ علِّمه الحِكْمة". رواه البخاري.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: (كُونُوا رَبَّانِيِّينَ) آل عمران: 79. قال: "كونُوا حُكمَاء فُقَهاء".

وقال الحافظ ابن حجر: والرّبّاني الذي يُربّي الناس بصَغار العِلم، قبل كباره.

والمراد بصِغار العلم: ما وضُحَ منْ مَسائله، وبكبَاره ما دقّ منها.

والبدءُ بصِغار العلم فيه مُراعاة للعُقول، حتى لا تنفر من الدعوة والدّين.

قال البخاري رحمه الله: "باب: مَنْ تَرَك بعض الاخْتيار؛ مَخافة أنْ يَقْصر فهم بعض الناس عنه، فيقعوا في أشد منه.

ثم ساق حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال النّبي صلى الله عليه وسلم: "يا عائشة، لولا أنَّ قومك حديثٌ عهدهم، لنقضتُ الكَعْبة، فجعلتُ لها بابين؛ بابٌ يَدخلُ الناس، وبابٌ يَخْرجُون".

"حديثٌ عهدهم" يعني: بكفر. قال ابن حجر: "ويُستفادُ منه تَركُ المَصْلحة، لأمن الوُقُوع في المَفْسدة". "الفتح".

والحِكمة تكونُ في الأمْر بالمَعْروف، والنّهي عن المُنكر أيضاً، وللأسَف فإنّ كثيراً مِنَ الدُّعاة إلى الله، يَفتقرون إلى الحِكْمة في التّعامل مع مُجْتمعاتهم، وكيفية دعوتها لما يُحبُّ الله ويرضى.

وعلى العُلماء والمُعلمين والمُربيّن؛ بيان معاني الحِكمة لطلبتهم وللمَدعوين، وعليهم أنْ يُعلّموهم ما يُنافي الحِكمة وموانعها، وهذه هي باخْتصار:

1- الهَوى وعدمُ التّجرّد لاتباع الحقّ: قال تعالى: (وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) ص: 26.

2- الجَهلُ بالكتاب والسّنّة: قال سبحانه: (وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ) العنكبوت:43.

3- الاستدلال بالأدلّةِ في غيرِ موضعها، أو الأخذ بظاهر النّصّ دون فهمه.

4- الاعتدادُ بالنّفس، وعدمُ مُشاورة الأكثر علماً وخِبرةً وتجربة، فالحِكمة توجبُ اسْتشارة أهل العلم الرّاسخين، والأثبات الناصحين، والانطلاق من فتواهم المقبولة المعتبرة، لا سيما في أُمور المُسلمين العامّة والهامّة، وكم رأينا مِنْ بليةٍ سببها التّعالم، أو إهمال رأي العلماء**!!**

قال تعالى لنبيّه الكريم صلى الله عليه وسلم الذي يُوحى إليه: (وشَاوِرهُمْ في الأمْر) آل عمران: 159.

5- العَجلةُ وتَرك التأني في الأمُور.

6- عدمُ ضَبط النّفس، والحَماسُ الزائد غير المُتعقّل.

ويَجمعهما حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنْهما قال: قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس: "إنّ فيكَ خَصْلتين؛ يُحبّهما اللهُ: الحِلْمُ والأنَاة". رواه مسلم.

7- عدمُ مُراعاة قاعدة: المَصالح والمَفاسد، وهذا يُؤدي إلى تقديم جلب المَصْلحة على دَفْع المَفسدة، ويُؤدّي إلى دفع المفسدة الصُّغرى بالكبرى، وجلب المصلحة الدنيا وترك العُليا، وليس الحكيم هو مَنْ يَعرف الخير مِنَ الشر، ولكن الحَكيم مَنْ يَعرف خيرَ الخيرين، وشرّ الشّرين.

سابعاً - السّعي إلى تَحْقيق وَحْدة الأمّة الإسْلاميّة:

فوحدة الأمّة مِنَ المَقاصد العظيمة للشّريعة الإسْلامية، ومِنْ أهمّ مقاصد الشريعة انتظام أمْر الأمة، وعدم التّفرّق والاختلاف، وفيه مِنْ جَلبُ المَصالح إليها، ودفع الضّر والفَساد عنها، ما لا يعلمه إلا الله تعالى.

وقد امْتدح اللهُ سبحانه وتعالى أمّة الإسْلام بوَحْدتها، المُحقّقة للغاية منَ الوُجُود، وهي: عبادة الله تعالى وَحده وتقواه، مِصْداقا لقوله تعالى: (إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) الأنبياء: 92.

وقوله عز من قائل: (وإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) المؤمنون: 52.

ومسؤولية العُلماء في تحقيق وحدة الأمّة؛ أكبر مِنْ مسؤولية غيرهم، بمسؤوليتهم في التّعريف بحقوق الأخوّة الإيمانية، كما قال سبحانه: (إِنَّمَا

الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) الحجرات: 10.

وبيان ما يجبُ عليهم مِنَ التذلّل لبعضهم، والتّراحم فيما بينهم، فهم أحبّة مُتراحِمُون فيما بينهم، أعزّة أشْداء على أعْدائهم، كما قال تعالى: (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) المائدة: 54.

وقال: (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) الفتح: 29.

فمتى ما نقص التذلّل والتراحم فيما بينهم؛ دلّ على نقصِ دينهم، وتَركهم العمل ببعضِ كتاب ربّهم، ووصَايا نبيّهم صلى الله عليه وسلم.

ومنْ حُقُوق الأخوّة بين المُسْلمين والمُؤمنين: تعظيمُ بعضهم لحُرُمات بعض، وعدم تنقّص بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُواْ بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) الحجرات:11.

وقال صلى الله عليه وسلم: "حقّ المُسْلم على المُسْلم خَمسٌ: عيادةُ المَريض، واتّباع الجَنائز، وإجَابة الدَّعوة، وتَشْميتُ العَاطِس". متفق عليه.

وكذلك التّحذير مِنْ كلّ الذّنوب التي تُفرّق المُسلمين، وتُوقع بينهم العداوة والبَغضاء، كالكذبِ والخِيانة وإخْلاف الوَعد، والغشّ في المُعاملات، والسبّ والقذف، والغِيبة والنّميمة، والسُّخرية والاستهزاء، وغيرها ممّا نهت عنه الشّريعة الغرّاء.

وتَذْكيرهم بواجبِ نُصْرة المُسْلمين بعضهم لبعض، كما قال سبحانه: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ) التوبة: 71.

وحماية بلاد المسلمين ومقدّساتهم، وفي مقدّمتها قضية تحرير فلسطين وبيت المقدّس مِنْ أيدي اليهود الغاصبين، وهي أرضِ المَحشر والمنشر، وأولى

القِبلتين، وثالث المساجد التي تشدّ لها الرّحال، وهي مسؤولية أخرى جسيمة تتطلّبُ مِنَ العلماء بذل جهدهم لتربية أجيال المسلمين عليها، والعمل على إيقاظ الهمم وشَحْذها في النّفوس، منْ أجل الدّفاع عن حَوزة المُسلمين وأوطانهم.

فهذه سبعُ واجباتٍ عظيمة، مُلقاة على عاتق العُلُماء، ومَن تبعهم من الدُّعاة المَهديين، جعلنا الله وإياكم منهم.

وهو ما تيسر بيانه في هذا المَوضُوع المُهم، نسأل الله تعالى الهداية والصّلاح للجميع المسلمين، والإعانة على مرضاة رب العالمين.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه / د. محمد بن حمد الحمود النّجدي